الأغنية الشعبية للأطفال في الجزائر

أ. زهرة خواني

Le résumer:

Cette étude commence par une hypothèse d'annihilation des paroles mémorables populaires dans notre pays sous couvert de diffusion des différents médias modernes, et le sujet de la chanson populaire des enfants et on échantillon vif à pour objet de répondre à cette hypothèse et en plus d'un essai de noter ces chansons et s'engager à l'étude de ces divers directives, circonstances et symboles. Or, le discourt demeure toujours ouvert.

ملخّص:

تنطلق هذه الدّراسة من فرضية اندثار المأثورات الشعبية الشفوية في بلادنا في ظل انتشار وسائل الإعلام الحديثة، وموضوع الأغنية الشعبية الخاصّة بالأطفال نموذج حيّ للرّد على هذه الفرضية الخاطئة، هذا بالإضافة إلى محاولة تدوين هذه الأغاني والخوض في مختلف اتجاهاتها ومناسباتها ورموزها وللحديث بقية!

لاشكّ أنّ موضوعًا يهتم بدراسة التراث هو في عمقه يبحث عن حياة الشّعوب القديمة والحديثة، والحقيقة أنّ الشّعر الشّعبي منتشر في كلّ بلاد العالم وذلك لتوفر عامل اللّهجات واللّغة الرسمية للبلاد.

ويعود انتشار الشعر الشّعبي إلى "عدّة عوامل ثقافية واجتماعية ودينية ساهمت كلّها في بلورة الطّابع الرّاهن للشّعر الشّعبي في الجزائر، وحدّدت سماته الرّئيسة وأغراضه الشعرية ومواضيعه الاجتماعية، وإضافة إلى كلّ ذلك فقد زاد من أهمية الشعر الشّعبي في الذّاكرة الشعبية هو سهولة صياغته البعيدة عن كلّ تكلّف وحذلقة وخالية من كلّ تنميق كلامي الذي يتطلّب معرفة عميقة بقواعد اللّغة العربية وعلومها"[1]، فالأغنية الشعبية إذن هي:

"نوع من أنواع الإبداع الشّعبي، فهي غنية بفكرها، زاخرة بألحانها، عظيمة بمعانيها، إنّها الصوت المحبّب للنّفس والوجدان المتدفّق الذي لا يقبل التزييف هي للنّاس جميعا كالأرض والماء والنّار"[2]، يتلقّى الأطفال منذ ولادتهم شعرًا في شكل غنائي وهو ما يسمّى بأغاني المهد وذلك قصد مداعبتهم أو تنويمهم بإظهار مشاعر الحبّ والإعجاب من خلال بثّ الأمنيات الحلوة لهم، وهي قصائد من إنشاء المرضعات أو الأمّهات المربّيات، فالطّفل قبل سنّ المدرسة أو حتّى في السّنوات الأولى من التّمدرس غير قادر عن إنشاء قصائد تخصّه، وبالتّالي فإنّ شعر الأطفال الغنائي باللّهجة العامية إذن هو من صنع شخص كبير.

وبما أنّ الأغنية الشعبية الخاصة بالأطفال تنقسم إلى:

1- قسم يغنّى للأطفال (الأمهودات).

2- قسم يقوم الأطفال بالغناء فيه.

وموضوعًا يتناول القسم الثّاني الذي يتفرّع بدوره إلى قسمين وهما:

1- أغاني ترتبط باللّعب.

2- أغاني لا ترتبط باللّعب.

ولكلّ منهما مناسباته التّي يتعارف عليها أبناء المجتمع من الأطفال الممارسين لهذا الفن الشّعبي.

تتعدّد موضوعات الأغنية الشعبية الخاصة بالأطفال بتعدّد المناسبات والمواسم لتظهر منها: الاجتماعية والدّينية والتعليمية والترفيهية، وكعيّنات للدّراسة قصد تدوينها واستكشاف بعض رموزها ودلالاتها انتقينا بعض القصائد التّعليمية وأخرى دينية:

1- الأغاني التعليمية:

تحرص الأغاني الشعبية للأطفال على تعليمهم بعض الأوّليات التّي تسهّل لهم التواصل مع أفراد المجتمع كالعدّ البسيط الأوّلي، أو معرفة ترتيب أيام الأسبوع أو التعرّف على أسماء الأشخاص الأكثر انتشارًا وتداولاً في محيطهم، ومن ذلك تغنيهم بقصيدة تجمع بين تعلّم أيّام الأسبوع وبعض الصفات التي ترتبط بما يحدث في هذه الأيّام، وهي تؤد ى بطريقة إلقاء الشعر الوعظي التّعليمي:

"السَّبْتْ سَبُّوتْ والحَدْ نَبُّوتْ
وَاثْنَايَنْ مَابَايَنْ وَالثْلاَثَهْ مْرَاحْ
وْلاَرْبَعَهْ فَرَّاحْ وَالخَميسْ سَرَّاحْ
وَالجَمّعَهْ عيدْ المُسْلمينْ"[3]

من الوهلة الأولى نلاحظ أنّ مؤلّف الأغنية ليس مسلمًا وقد يكون يهوديًا لأنّه يخصّ يوم السّبت للسّبات بالنّسبة لليهود الذين كانوا يقيمون بالجزائر إبّان فترة الاستعمار الفرنسي، ويوم الأحد هو للعمل فتنبت المزروعات ويظهر فيه الخ ير وتنشط فيه الحياة، والاثنين يفصل بين أيام اليهود والمسلمين فهو بالنّسبة لهم مطموس لأنّه يوم مولد الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، ويوم مفضّل لتطوّع المسلمين بالصّيام، فيحاولون تجاهله لإحداث التّوازن الفكري والرّوحي بين ما بث في الأغنية من معان، فلا يطغى الح سّ الإسلامي على روح القصيدة، ويوم الثّلاثاء يخصّص للاستراحة في ساحة البيت ليلتقي الأقارب ويتواصلون، أمّا يوم الأربعاء فإنّه يقبل علينا بأخبار مفرحة قد تكون أخبار الأعراس أو الختان التّي تقام عادة في اليوم الموالي وهو الخميس، والمناسبة المقصودة هنا هي فرحة الأطفال بانتهاء أسبوع من التعلّم في الكتّاب، فيسرّحون يوم الخميس لأنّه عطلة بالنّسبة إليهم بالإضافة إلى يوم الجمعة الذّي هو عيد لكلّ المسلمين من أبناء لا يدرسون و آباء لا يعملون فهو يوم راحة، فإلى جانب المعجم الفلكي ودورة الزّمن فإنّهم يتعلّمون أيضًا النّ ظام الاجتماعي الذي ينتهجونه فكلّ يوم هو مخصّص لنشاط معيّن.

ولعلّ أولى الأغاني التّي يتعلّمها الأطفال وهم في مراحلهم الأولى تلك التي تحمل دلالات العدّ البسيط، مستعملين أصابع أيديهم بدءًا من إبهام اليد اليمنى وانتهاءً عند بنصر اليد اليسرى مردّدين: (وهي تؤدى بانفرَاد):

"وَاحُو ثَانُو تَالُو رَابُو
خَامُوشَّنَّتْ شَعَّبْ قَجَّطْ
مَجَّطْ مِوْ"[4]

وهي أغنية تحثّ على الانتباه لعملية الحساب والعدّ من واحد إلى عشرة، وهو جمع أصابع اليدين، حركية أكثر منها تلقينية للأعداد، والتبسيط في الأسماء ما هو إلاّ للسرعة والخفّة وبعث روح الدّعابة والمرح في نفوس الصّغار، فالأعداد من ستّة إلى عشرة ذات ألفاظ لا معنى لها في اللّغة، إلاّ أنّه قد اجتمع أكبر عدد ممكن من الحروف وقلّ فيها التكرار لتكون القطعة تحفة فنية صغيرة يتعلّم مرها الصّبيان نطق الحروف والعدّ والغناء معًا.

وفي مقطوعة أخرى يشكّل الأطفال حلقة تدور للتعرّف على الأعداد وهم يردّدون جماعيًا:

" وَاحَدْ زُوجْ زُوبيدَهْ
ثْلاَتَهْ رَبْعَهْ رَبيعَةَ
خَمْسَهْ سَتّهْ سَتُوتَةَ
سَبْعَ ثْمَنْيَهْ يَمينَهْ
تَسْعَ عَشْرَهْ عَاشُورَهْ
حْدَاشْ طْنَاشْ طيمُوشَهْ"[5]

وفي رواية أخرى من منطقة الجزائر العاصمة تبقى المقطوعة على حالها وتتغيّر عند العدد إحدى عشرة فيقولون:

"حْدَاشْ طْنَاشْ كُوكياجْ[6]
طْنَاشْ تْلَطَّاشْ مَاكيَاجْ[7] "[8]

هذا عند البنات، أمّا الأولاد فيغنّون:

"حْدَاشْ طْنَاشْ
كي يْجي بَابَا
مَا الحَرَّاشْ
يَضْرَبْني بَالكْرَافَاشْ"[9]

فيزداد التطوّر الاجتماعي للأطفال وقابليتهم للتّعليم سنة بعد أخرى، لتعكس هذه الأغنية أساس التّعلّم التّقليدي الذّي يحاول أن ينتقل من سذاجة وبساطة الأغنية السّابقة إلى جدّية وتعقيد هذه الأغنية وتدرجّها في التّعليم، فتجمع بين تعلّم العدّ وأسماء الأشخاص المتداولة في المجتمع ومنها ما بقي على أصله كـ: زوبيدةُ، ربيعة، يمينةُ، عاشورة، ومنها ما جاء بصيغة التّصغير والتّدليل مثل: ستوتة وأصلها سَتّي وطيموشة وأصلها فَاطمَةُ، فتحريف الأسماء أو قلبها أو اختصارها، وإعطائها مفهومًا أو تعبيرًا حلوًا ولطيفاً ومحبّبًا أيضًا، الغرض منه غالبا هو زيادة أواصر الصّداقة والمحبّة.

2- الأغاني الدّينية:

يتوخّى هذا النّوع من الأغاني تقوية الرّوح الدّينية بين أفراد المج تمع و يزوّدهم بالقيم والمفاهيم الضرورية، وتمنحهم المبادئ الأخلاقية، وقد فرضت وجودها في الفنّ أكثر من غيرها بهدف خلق أجواء روحية وفكرية وعاطفية في مختلف المناسبات الدّينية كالمولد النّبوي والحجّ وعيدي الفطر والأضحى. ومن هذه الأغاني ما يتعلّق بالكتّاب وحفظ ال قرآن

وعلاقة الصّبيان بمعلّمهم فيغنّي الأطفال كلّ صباح عند اقترابهم من المسجد وتجمّعهم منشدين هذه المقطوعة:

" مُولاَنَا نَسْعَوْ رضَاكْ
عَلَى بَابَكْ وَاقفينْ
لاَ مَنْ يَرْحَمنَا سوَاكْ
يَا أَرْحَمَ الرَّاحمينْ"[10]

ويجتهدون في حفظ القرآن الكريم وكلّهم أملٌ أن يجولوا الشّوارع في يوم من الأيّام وهم يحملون ألواحهم التّي حفظوا بها القرآن الكريم، وهي مزينة بصفار البيض والنّيلة[11] وهم يردّدون للحصول على صدقة من أهالي البيوت ليأخذوها إلى معلّمهم:

" يَا مَّا عْطيني بيضَهْ بَاشْ نْزَوَّقْ لُوحْتي
لُوحْتي عَنْدَ الطَّالَبْ وَالطَّالَبْ فَالجَنَّهْ
وَالجَنَّة مَحْلُولَهْ حلْهَا مُولاَنَا
مُولاَنَا وَاصْحَابُوا فَالجَنَّهْ يَنْصَابُوا
سَرْحُونَا يَا مْوَالينْ الدَّارْ
اللَّهْ يْسَرَّحْكُمْ بالجَنَّهْ وَمَزيُودْ حَنّة"[12]

إلاَّ أَنَّ الأطفال وفي ظلّ التطوّ ر الاجتماعي والاقتصادي لم يعودوا يمارسون هذه الطّقوس (لأنّهم يدفعون للمعلّم مبلغا معلوما شهريًّا) بل صارت الأغنية مجرّد وسيلة لإعلام الأصحاب والأهل بأنّهم قد حفظوا جزءا من القرآن أو بعض الأحزاب منه حسب السنّ.

ونعثر على أغنية في نفس الغرض وقد نقلها الباحث على أنّها لغرض تنويم الأطفال في منطقتهم، ولا نستبعد ذلك لأنّ إيقاعها البطيء وسلاستها يخوّلان لها الاستعمال في هذا المقام:

" بيضَهْ بيضَهْ لَلَّهْ بَاشْ انْزَوَّقْ لُوحْتي
لُوحْتي عَنْدَ الطَّالَبْ وَالطَّالَبْ فَالجَنَّهْ
وَالجَنَّةُ مَحْلُولَةُ حلْهَا مُولاَنَا
يَا سَامَعْ دْعَانَا لاَ تَقْطَعْ ارْجَانَا
بْجَاهْ مُحَمَّدْ مُحَمَّدْ نَبينَا
هُوَ يَشْفَعْ فينَا"[13]

وَتُركّز الأغنيتان على فضل معلّم القرآن ومكانته الاجتماعية ودوره في بلوغ الجنّة التّي يتمنّاها كلّ المسلمين، بل وتعقد الأ غنية الثّانية رجاءها في الله تعالى وفي شفاعة رسوله محمّد صلّى الله عليه وسلّم لبلوغ الجنّة.

وفي رواية أخرى من منطقة "تيرني" ولاية تلمسان يغنّي الأطفال وبنفس المطلع:

" يَا ما عْطيني بيضَهْ بَاشْ نْزَوَّقْ لُوحْتي
لُوحْتي عَنْدَ الطَّالَبْ وَالطَّالَبْ فَالجَنَّهْ
شيخْ ليهُودْ فَالسفُودْ وشيخْ النْصَارَى فَالخسارَهْ

وْشيخْنَا فَالجَنَّهْ وَحْنَا عْليهْ شْهُودْ"[14]

والأغنية تبرز مكانة (الشّيخ) معلّم القرآن الرّفيعة عند الله ومصير الشّيخ اليهودي والشيخ النصراني في عذاب جهنّم.

وبهدف رسم الابتسامة وإظهار فرحة نهاية أسبوع من المداومة على الكتّاب ينشد الأطفال هذه الأغنية لمعلّمهم:

" سَرَّحْنَا يَا طَالَبْنَا نْسَرْحُوكْ لَلْجَنّهْ
وَالخيرَاتْ تَتْسَنَّى فيكْ كُولْهَا وَتْهَنَّى
مَدْ عْظَامَكْ لَلْجَنَّهْ
لاَ حْسَابْ ولاَ عْقَابْ رَبيّ يَفْتَحْ كُلْ بَابْ"[15]

تمنح هذه الأغنية مبادئ روحية وأخلاقية معيّنة، إضافة إلى أَنَّهَا تُثيرُ نَشاطا انفعاليًا مبهجًا للأطفال وتنمّي عاطفة الاحترام للمعلّم ووجوب الشّكر والعرفان له.

وفي مقطع آخر يغنّي الصّبيان:

" لاَ رَبْعَهْ مَفْتَاحْ
وَالخَميسْ سَرَّاحْ
وَالجَمعَهْ فَكّارَتْ لَلْوَاحْ
وَاللّي بْغَا يْعَمَّرْ التّليسْ
مَا يَخْطَاهَا لاَ جَمْعَهْ ولاَ خْميسْ"[16]

وتؤدّي الكناية دورها في التربية والتّعليم في عبارة " يعمّر التليس "، كناية عن الحفظ الجيّد، وكذلك الحثّ على المراجعة يومي العطلة: الخميس والجمعة.

تجمع هذه النّماذج من الأغنيات مختلف المعاجم التّي يتزوّد بها الطّفل من دينية في عبارات: الطّالب، الجنّة، الله، دْعَانَا، محمّد، نبينا، يشفع، ليهود، النصارى، ربيّ، بالإضافة إلى المعجم الاجتماعي مثل: مُّا- مولانا، اصحابو، الدّار، شيخ.

ونختم ه ذه الإضاءات بهذا ا لدّعاء الذي كانت تلقنه الجدّات ل لأطفال ع ند النّوم لمداومة الذّكر فيغنون:

" يَا نَبينَا يَا رَحْمَانْ
بْجَاه النبيّ العَدْنَانْ
تْنَجينَا منَ الشَيْطَانْ
مَنْ كُلْ بْلَيَهْ
تَبتْنَا عَنْدْ السُّعَادْ
لَعْمَالْ مَا تَنْفَعْ عْمَالْ
يَا رَبّينَا يَا رَحْمَانْ"[17]

فَبالإضافة إلى صفة الغنائية التّي تلتزم بها كلّ أغاني الأطفَالْ، فإنها قد استقطبت هذا الجمهور الصّغير في كلّ منطقة من مناطق الوطن التّي لا تخلو بطبيعة الحال من المساجد والكتاب ويلتزم فيها المجتمع بتعليم أبنائهم، وبالرّغم من اختلاف ا للّهجات تَتَغَيَّرُ

بعرض المقاطع حسب مقتضى الحال فإنها تظلّ مفهومة عند الكبير والصغير وعند ابن القرية والمدينة على السّواء، مع مراعاة الوقوف عند مختلف المواعيد فتتنوّع الأغاني ذات المناسبة الواحدة لتأخذ ألوانًا وأشكالا كثيرة بل وتخدم مختلف الظروفْ كالإسكات عن البكاء والتنويم والتدليل...

الإحالات

1- أحمد حمدي، ديوان الشعر الشعبي، شعر الثورة المسلّحة، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1994، ص 7.

2- د. عبد الفتاح عبد الكافي، الأدب الإسلامي للأطفال، دار الفكر العربي، 1418هـ، 1997، ط1، ص 35 (بتصرف).

3- الراوية: فاطمة بن صالح من مواليد 1964، رواية عن جدّتها المولودة سنة 1904 والمتوفاة في 1987.

4- الرّاوي: نصر الدين بوغانم من مواليد 1962، مدير الثقافة ببلديّة تلمسان.

5- الراوية: ليلى خواني، مساعدة تربوية بمتوسطة أوزيدان، تلمسان.

6- كُوكياجْ: صدفة البحر.

7- ماكياجْ: مساحيق التجميل.

8- ENFANCES de A à Z, Acte de onzième colloqué de français 5,6,7 Juin 1989- UNIVERSITE D'ALGER- BOUZAREAH PAGE "52".

9- المرجع السابق ص " 52".

10- الراوية : منصورية بوعريشة، من مواليد 1965 (موظفة ببلدية تلمسان) رواية عن جدّتها المرحومة طبيب عائشة المولودة سنة 1897 ببركان (المغرب الأقصى)، والمتوفاة سنة 1980 بالبقاع المقدسّة.

11- النيلة: مادة صخرية لونها أزرق تحول إلى غبار وتخلط بالماء ل ذهن ألو اح حفظة القرآن بغية تزيينها.

12- الراوية: فاطمة بن صالح.

13- عاشور سرقمة، الرقصات والأغاني الشعبية بمنطقة توات، مدخل للذهنية الشعبية، دار الغرب للنشر والتوزيع، وهران، الجزائر، 2004، ص 104.

14- الرّاوية: بوعزاوي أمينة (سيدة بيت).

15- العيد جلولي، النص الشعري الموجه للأطفال في الجزائر (دراسة تحليلية لاتجاهاته وأنماطه وبنيته الفنية)، رسالة دُكتوراه، مخطوط، جامعة الجزائر، 2004- 2009، ص 85.

16- الراوية: بوعزاوي أمينة.

17- الراوية: بوعريشة منصورية .